(برتراند رسل ١٨٧٢-١٩٧٠) والبرغماتية

جاء أشد هجوم على البرغماتية التي قال بها (جيمس) من (رسل)، إذ أكد أن (جيمس) قد «استمد نقطة انطلاقه من صياغات - بيرس - المبكرة التي كانت عرضة لسوء الفهم، والتي حاول بيرس أن يتبرأ منها (بالبرغماتيسية Pragmaticism)»[١].

فصعوبة قبول أن الحقيقة كائنة بمدى مطابقتها للواقع والوقائع المعاشة (Facts) من جهة، وصلتها باليقين العلمي «الذي يحكم منطق الأمور والذي يسمى منطق الأحداث... يؤدي إلى الاعتقاد بأن القدر ما هو

---

(١) برتراند رسل، حكمة الغرب، عالم المعرفة، الكويت، كانون الثاني ١٩٨٣م، ص٢٤٢.

سوى قوانين التاريخ وخططه»[١]، وهو ما سماه (بوبر) بالتاريخانية (Historicism) التي حكمت فكر القرن العشرين، سواء بالماركسية والاشتراكية أو بالبرغماتية، وهو ما اعتبره (رسل) نتيجة نقص بالتفكير الفلسفي بهم[٢].

ونقص التفكير الفلسفي يأتي أول ما يأتي من تعريف الفلسفة بأنها السعي نحو الحقيقة وحبها، دون القدرة على الوصول إليها في هذا العالم؛ لأنها في عالم الْمُثُل أو عالم الصور، أو هي مرتبطة بعالم الشيء بذاته (النومن)، الذي من السخف بمكان تجسيده بأي إرادة كونية أو إنسانية فردية، سواء من أجل استعارة تجلي القوة الكونية بنا أفراداً أو أمماً،

(1) karl Popper, the Poverty of Historicism, Routledge, London 2002, p137.

(٢) انظر كتابنا: دعوة للدخول في تاريخ الفلسفة، مجد، بيروت ٢٠٠٢م، ص١٩٦-٢٠٤.

أو بإرادة اعتقادات، حاول (جيمس) أن يعجب بنتائجها، مع كثير من غض النظر عن الدماء التي دفعتها البشرية ثمناً لصراع هذه المعتقدات.

لذلك حين صرح (رسل) أن الحقيقة هي فقط الحقيقة الرياضية التجريبية، خطأه (بوبر)، بأن كل هذه الحقائق قابلة للتصحيح المستمر «العلم هو مستوى المعرفة الوحيد القابل للتصحيح لأن وقائعه (Facts) لا صح ولا خطأ فيها، لأنها مجرد معطيات»[١]، مثل كل الحقائق الرياضية التي بني عليها يقين (بطليموس) وثبت خطؤها، فكل حقائق الرياضيات المستوية لا تصلح في الميكروفيزياء، وكل وقائع (داروين) تهزها اليوم علوم (Macromolecule) التي تطورت منها الحياة.

يقول (هوكنغ): «إما أن هناك الكثير من الأكوان المختلفة (Universes) أو أن هناك مناطق مختلفة في هذا

(١) المرجع السابق، ص٣٥٢.

الكون الواحد... لكل منها مجموعة قوانينها الخاصة»[١] التي تتداخل حتماً، ونحن بكونٍ يتجه نحو قطب التحطم الكبير (Big crunch)، لذلك فكل قوانيننا العلمية كناية عن تعبير عن المرحلة الكونية التي نمر بها حيث يتغلب التناغم والنظام على الفوضى[٢]، لذلك لا يوجد حقيقة ثابتة في هذا الكون، وقد أحسن (بوبر) حين قرر أن الحقيقة بين (الماكرو) و(الميكرو) اللذين تتأرجح بينهما - أي حقيقتنا - ترجيحية، تماماً كما عبر عن ذلك الفلاسفة القدماء، وكما في صلة الحق بالله وحده كما في الإسلام، ومنه وحده فقط الحقيقة، حيث إنها من أمره تعالى ومن كلماته فقط ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٢٤]، وخارج هذا الإطار يجب علينا السعي نحو الحقيقة، وهذا هو حب الحقيقة والحكمة، إلى أن

(1) Stephen Hawking, ABrief History of Time, Bantam Books, London 1977, p138.

(2) Ibid.

يأتينا اليقين، في كون آخر من صنعه تعالى هو اليوم الآخر، وقبل ذلك كل حقائقنا ترجيحية (Plausibility) ليس إلا.

فمن الشعور بإشكالية شبيهة حول الحق والحقيقة في هذا الوجود، ومن منطلق أن مشكلة البرغماتية الأساسية سواء مع (بيرس) أو مع من ادعوها، مشكلة معرفة الحقيقة لكي نبني عليها، هو بالضبط استعادة لمطلب «أرخميدس - القديم - الذي كان يطلب من الآلهة أن تزوده بيقين واحد فقط منه يستطيع أن يغير العالم»[١]، فهل يعقل أن يكون هذا اليقين هو النجاح الأداتي؟!

يرى (رسل) أن هذا ما لم يقرره (بيرس) الذي «ينبغي أن ننظر إليه في سياق مذهب استحالة العصمة من الخطأ (Fallibilism)»[٢]، ويقول: «أما البرغماتية

(١) دعوة للدخول في تاريخ الفلسفة، مرجع سابق، ص٢١٠.

(٢) حكمة الغرب، مرجع سابق، ص٢٤٣.

التي استخلصها (جيمس) من هذا كله، فتذكرنا بصيغة (بروتاغوراس) - السفسطائي - عن الإنسان بوصفه مقياس الأشياء جميعها»[١].

إن فعالية الحق فيما نفعل من سلوك باتباع الأخلاق والإسلام، لا يعني أن الحقيقة فاعليةُ تطبيق، أما القياس عند (بيرس) فيعني الأخذ بالفرض الذي يفسر ظاهرة ما، ويرى (رسل) «أن الاستنباط من فرض ما لا يعني قبوله»[٢]؛ لأنه ناجح أداتياً كما ادعى (جيمس).

ولأن بيرس كان رياضياً حسب رسل فقد «بدا له أن العالم يفترض مقدماً أساساً ميتافيزيائياً.. لم يكن ليشترك مع برغماتية جيمس»[٣]، لذلك صرح (رسل) بأن «مذهب (بيرس) كان أعمق بكثير من برغماتية

(١) المرجع السابق، ص٢٤٤.
(٢) المرجع السابق، ص٢٤٥.
(٣) المرجع السابق، ص٢٤٥ أيضاً.

(جيمس) ولم يبدأ فهمه وتقديره بعد»[١].

ثم رد رسل على كتاب (إرادة الاعتقاد) لجيمس بكتابه: (ماذا أعتقد أنا)[٢] مؤكداً - شأنه شأن (بيرس) - أن الحياة الجيدة هي التي تقوم على المعرفة المنطقية العلمية، ومعرفة الوقائع بالأخص[٣]، وعلى العكس من (جيمس) يقول: «لا أؤمن بقدرتنا على معرفة الحقيقة من أي سلوك نتبعه»[٤].

وهنا يجب أن نوضح للقارئ أن الميل الذي يحدده المزاج الفلسفي (Temperament) الذي أوضحناه من وجهة نظر (جيمس)، كمحدد أساسي لكل تفلسف، وفي فلسفته تحديداً هو ما يسميه بالحقيقة، فهو يميل إلى الأداتية، فحقيقته أداتية، في حين يميل مزاج

---

(١) المرجع السابق، ص٢٤٥.

(2) Bertrand Russell, What I Believe, Routledge, London 2004.

(3) Ibid, p13.

(4) Ibid, p14.

(رسل) إلى التجريبية، فحقيقته تجريبية، وأنا أميل إلى أن الحقيقة بكلمات الله تعالى فمزاجي وميلي إسلاميان، أما الفائدة التي يمكن أن يجنيها أي من هذه الميول، وعلى الأقل بالنسبة إلي فهي أخروية لا دنيوية، فالنفعية بهذا المعنى، والتي قد تكون مؤذية في الدنيا لصاحبها ترتبط بالحقيقة الأخروية، وأي ادعاء بنفعية ذرائعية دنيوية أمر نسبي بكل معنى الكلمة؛ لأن الحقيقة ملك النومن لا الظواهر (الفينومنن) حسب (كانط)؛ أي هي ملك الله وحده.

وكل إصرار على أن الحقيقة ملك التجربة كما عند (رسل)، أو ملك نجاح الأداتية كما عند (جيمس)، هو ادعاء بالوصول إلى الحقيقة في هذا العالم، عالم النقص والفساد، الذي لم تعتبره الفلسفة، باعتبارها حباً للحقيقة، غايةً بحد ذاته، وبه على أحسن الأحوال منذ (سقراط) مجرد مقاربات للحقيقة، وقد أحسن (بوبر) باعتبارها ترجيحية، فما كان يظن حقيقة فيزيائية، صار تاريخ فيزياء اليوم، وهذا مثال على ذلك.

وخطر الترجيح حين الاقتراب من الحقيقة عندما تبهر العقل الإنساني بلمعها الرائعة فيندفع إلى الظن الساذج بأن هذه الظلال الرائعة لها هي كل ما فيها، فتظهر الدوغمائية.

فالعدالة التي يفتقدها المذهب البرغماتي مثله مثل المذهب النفعي هي أساس كل فكر فلسفي يريد صناعة الأتباع، العدالة لا النجاح والمردود، العدالة لا المنفعة لأكبر عدد من الناس فقط، دون الأخذ بالاعتبار الآخرين حين النفعية؟ العدالة هي ما سمح لنا ميزان الحق والحقيقة باستعماله منها، فبأي وجه ندعي أن الحقيقة هي المردود أو الفائدة؟ قال رسل: «لا يمكن إنجاز أي شيء بجعل بعض الناس آمنين على حساب آخرين.. فنهج كهذا هو الذي يسبب زيادة الإرهاب»[1].

ولعل مأخذ (رسل) على البرغماتية وعلى النفعية

(1) Ibid, p35.

على حد سواء هو: جذرهما الرواقي المسيحي «فمع ضياع الحرية الإغريقية، ظهرت الرواقية، التي هي كالمسيحية، وليست كأفلاطون في استحواذهما على مفاهيم جمعية للحياة الجيدة»[١]، في حين أن الحياة بكل غزارة تنوعاتها، تظل تحتفظ لكل كائن بفردية خاصة، يجب مراعاتها من أجل العدالة.

هذا الجذر المسيحي الرواقي في الفلسفة البرغماتية والذي أعلنه (جيمس)؛ بعمق النفعية التي ترجع إلى الأبيقورية والرواقية، هو الذي دفع (رسل) إلى التصريح بعداء المسيحية، التي هي ركن البرغماتية الأساسي فكتب كتابه (لماذا لستُ مسيحياً)[٢]، من منطلق لا أدريته حول وجود الإله المسيحي (Agnostic)[٣] الذي يجسد الحقيقة الإلهية، لكن هذا

(1) Ibid, p28.

(2) Bertrand Russell, Why Iam Not A Christian, Routledge, London 1996.

(3) Ibid, p133.

لا يعني أن الله غير موجود عند (رسل) يقول: «عندما تكون الدولة متطرفة في علمانيتها، كما هي الحال في فرنسا، تصبح المدارس متعصبة مثل المدارس التي تديرها الكنيسة، وعلمت أن كلمة الله يجب أن لا يرد ذكرها في أي مدرسة ابتدائية فرنسية»[١]، وهذه دوغما أسوأ من دوغما الكنيسة.

إنه عداء (رسل) للدوغما سواء ضد الكنيسة، أو معها بما بني من برغماتية على أسس كنسية.

ويشرح (رسل) كيف أن سوء (الدوغما) يعود على أصحابها ومطلقيها، يقول: «الذي يريد أن يحافظ على أنه بطل القوة - إرادة القوة - عليه أن يستمر في إثبات جدارته باللقب، بإنشاء جهاز حماية له - من آخرين مثله - من الاغتيال، وهكذا تنتج طائفة الأبطال أمة من الأنذال المرتعشين من المخابرات؛ والشيء نفسه

(١) برتراند رسل، أسس لإعادة البناء الاجتماعي، مجد، بيروت ١٩٨٧م، ص١٢٤.

من المتاعب تواجهه النظرية البرغماتية التي تدعي أن الحقيقة، أي حقيقة الاعتقاد تصبح صحيحة إذا كانت نتائجها مرضية؟! مرضية لمن؟! فالاعتقاد (بستالين) مرضٍ له، لكنه غير مرضٍ (لتروتسكي)، والاعتقاد (بهتلر) مُرضٍ للنازية.. فلا شيء يقرر الإرضاء سوى القوة.. لذلك، إن الاعتقاد بالبرغماتية سيقود في حال انتشاره إلى سلطة قوة مطلقة»[1].

وهذا ما يحصل اليوم؛ فعلى أي أساس تنتشر هذه السلطة العالمية بالعولمة اليوم، وخاصة في منطقتنا؟ وهي تدعي أنها ضد النازية والدكتاتورية والنتشوية؟

(1) Russell, power, Routledge, London 2004, p214.